الباب الثاني

٢،١ تمهيد

٢،٢حياة ابن تيمية

٢،٢،١ مولده

٢،٢،٢ أسرته

٢،٢،٣ نشأته

٢،٢،٤ صفاته

٢،٣أحوال ابن تيمية

٢،٣،١ حالته السياسية

٢،٣،٢ حالته الإجتماعية

٢،٣،٣ حالته العلمية

٢،١ تمهيد

يُعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) من العلماء البارزين فقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) حجةٌ من حجج الله وآيةٌ من آياته لم تشهد الأمة الإسلامية من بعده مثله ولكن أكثر أهل زمانه ومن جاء بعدهم لم يقدروه حق قدره و لم يعتنوا بدعوته حق العناية إلاّ أن الظروف تتغير والعقول تتنور والابعاد تنطوي فيتحصحص الحق وتتهياء الفرص لنمو الحق حتى أصبح ابن تيمية (رحمه الله) موضوعا خاصا للدين يهتمون بتراجم عديدة مفردة وغير مفردة كما أن كتبه ورسائله وفتاواه وما تضمنته من اجتهادات في مسائل الفقه والأحكام ودراسات أصولية في الحديث والتفسير صارت مجالا خصبا للتأليف والدراسة والنشر والتحقيق .

ويأتى هذا الباب عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في مبحثين :

الأول حياته : تتضمن ترجمة شيخ الإسلام من مولده من حيث الزمان والمكان وأسرته من الأب والجد والأم والأخ وشيوخه ونشأته من حيث جهوده العلمية والعملية ومحنه التى مر بها وعن أهم صفاته الشخصية التي تميزها عن الآخرين .

الثاني أحوال ابن تيمية : عاش شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن الهجري وبالتحديد عامي ٦٦١-٧٦٨هـ وقد كان هذا العصر امتداداً لعصور سابقة اعتورتها أحداث كبار ومتغيرات كثيرة في العالم الإسلامي سواء في وضعه السياسي أو وضعه العقدي أو وضعه الإجتماعي والتشريعي وتفصيل هذه الأمور يُبعدنا عن موضوع الرسالة لذا سنقتصر على الإشارة إلى بعض القضايا التى عاش فيه ابن تيمية (رحمه الله) دون الدخول في مَتَاهات الأوضاع السياسية وتَقلُباتها وإنما نكتفي في ذكر حالته السياسية كيف كان (رحمه الله) يعالج الأمور السياسية وأوضاعه بالحكمة والانصاف وعن حالته الأجتماعية من ظهور الفساد والأضطراب وكيف كان (رحمه الله) أعاد الأمور إلي نصابها وعن حالته العلمية حيث فتح مجالاً واسعاً للفكر والأستنباط وغير ذلك .

٢،٢ حياة ابن تيمية

٢،٢،١ مولده

هو الإمام المجدّد شيخ الإسلام [١] تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم ابن شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد الخضر بن علي بن عبد الله (الأمام السيوطي ١٣٩٣هـ : ٥١٦ ومحمد عزيرشمس وعلي بن محمد العمران ، دت : ٥٧ ، ٧٨، ١٣٦، ١٣٢)

واشتهرتقي الدين بإبن تيمية حيث روي أن جده أبي محمد حج علي درب تيماء فرأى جارية خرجت من خباء فلما رجع وجد زوجته ولدت بنتا فرفعوها إليه فقال : ياتيمية ياتيمية اي أنها تُشبه تلك الجارية التي رأها بتيماء وقيل أن جده محمدا كانت أمه تسمي تيمية فنسب إليها (الإمام الذهبي ،دت: ٢٢ / ٢٨٩)

ولد إبن تيمية بحران [٢] يوم الأثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وقيل أن مولده كان في الثانى عشر من هذا الشهر ولعل أولئك يريدون أن يثبتوا أن مولده كان موافقا لمولد الرسول ﷺ تيمُناً بأنه سيحي سنته ويدعم بالحجج شريعته وتوفى سنة ٧٢٨ هـ عن عمر يناهز ٦٧ عاما (رحمه الله) (محمد عزير وشمس بن علي بن محمد العمران ، دت : / ١٣٢ ، ١٧٦ ، ٢٠٢)

كان ابن تيمية منذ صِغَرِه ينصرف إلي المجدى من العلوم فكان لايلهو لهوَ الصبيان ولا يعبث عبثهم وكانت ذاكرته حادة وواعية وتجاوز ذلك الصبيان إلي الرجال

---

(١) المعلوم عند أئمة الإسناد : أن مشايخ الإسلام والأئمة الأعلام هم المتبعون لكتاب الله عزوجل المقتفون لسنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي تقدموا بمعرفة أحكام القرآن ووجوه قراآته وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه الخ فمن كان بهذه المنزلة حكم بأنه إمام واستحق أن يقال له شيخ الإسلام ، كما أطلق هذا اللقب علي عدد كبير من العلماء حتى يومنا الحاضر (محمد بن أبي بكر ابن ناصرالدين الدمشقي ، ١٤١١، ٥١)

(٢) حران بتشديد الراء : مدينة مشهورة بين المُوصِل والشام الروم بينها وبين الرها يومٌ وبين الرِقة يومان (ياقوت الحموي ، دت : ٢ / ٢٣٥) .

JOHN F. KENNEDY MEMORIAL LIBRARY
PRINCE OF SONGKLA UNIVERSITY
PATTANI, THAILAND

فتسامعت به البلدة وما حولها ، و لم تتحدث المصادر التاريخية كثيراً عن مرحلة طفولته ربما كانت العناية بمرحلة شبابه بكثرة الاحداث التي لازمه طيلة فترة حياته وسافر به والده مع الدته واخوته بسبب أوضاع ديار بني بكر وما حولها – ومنها حرّان – التي كانت أحوالها سيئة للغاية بعد استيلاء التتار عليها (عماد الدين خليل ١٤٠٠هـ : ٣٢٩)

فوصلوا إلى دمشق [١] سنة ٦٦٧ هـ واستوطنوها وفيها بدأ حياته العلمية وكانت العادة في البلاد الإسلامية إحضار الأولاد الصغَار في مجالس أهل العلم التي تعقد لسماع الحديث لتحبيب العلم إليهم ولحصول البركة وَلِعُلُوِ الإسناد وكان شيخ الإسلام قد بدأ بتحصيل العلم في سنٍ مبكر ، فاستحفظ القرآن ومن بعد القرآن الى الحديث فأخذ يترع من مائه العذب وخصوصا أن أباه على رأس مشيخة الحديث في بعض مدارس دمشق و لم يكن تاجراً كأبي حنيفة إذ كان أبوه تاجراً ولذا كان ينصرف إلى الاسواق في صدر حياته و لم ينقطع عنها طول حياته فكان المنطق أن يتجه ابن تيمية الى العلم (أبو زهرة ، دت: ٢/ ٦٠٣)

ثم واصل ليله بنهاره في الأخذ والسماع على شيوخه الذين يزيدون عن مائتي شيخ في جميع الفنون مع عُكوفه على قراءة الكتب وحل مشاكلها واستمر على ذلك وعنى بالحديث وسمع ما لا يحصى من الكتب والأجزاء وقرأ بنفسه وكتب بخطه جملة من الأجزاء وسنن أبي داود وبرز على أقرانه فهماً وذكاءً واستيعاباً للعلوم وتأهلّ للفتوى والتدريس وله دون العشرين وأفتى قبل العشرين أيضا ووالد ابن تيمية بمجرّد أن وصل إلي دمشق ذاع فضله واشتهر أمره لأن العلم نور يضئ حول صاحبه فتعشوا إليه الابصار وتولي مشيخة دار الحديث بالسُكرية [٢] وبها كان مسكنه وفيها تربّي ولده تقي الدين ابن تيمية (أبو زهرة ، دت : ٢ / ٦٠١)

يقول الشيخ أبو زهرة في وصف الشيخ شهاب عبد الحليم والد ابن تيمية :

---

(١) دمشق بكسر أوله وفتح ثانيه هكذا رواه الجمهور والكسر لغة فيه وشين معجمة وآخره قاف : البلدة المشهورة قصبة الشام وعاصمة سوريا حاليا وهي بُقعة تكثر فيها الفواكه والمياه سُميت دمشق لأنهم دمشقوا في بنائها اي أسرعوا وقيل سميت دمشق بدماسق بن قانى بن مالك بن أرفحشد بن سام بن نوح (عليه السلام) (معجم البلدان ، دت ٢ / ٤٦٢) .

(٢) وكان شيخ الاسلام ساكناً فيها وهي دار حديث صغيرة ضيقة حرجة .

بأنه كان يلقي دروسه غير مستعين بقِرطاس مكتوب أو كتاب يتلو منه أو مذكرات يستعين بها الوقت بعد الآخر بل كان يلقى الساعات من ذاكرته الواعية هذا وإن دلّ علي شيء فإنما يدل على قوة الذاكرة الحافظة وثبات الجنان (أبو زهرة ، دت:٢ /٦٠١)

وهذه الصفات وإن كانت ظاهرة لوالده فإنها تبدو ظاهرة أيضا لإبن تيمية إذ كان من أخص صفاته – ابن تيمية – الحافظة الواعية والبديهة الحاضرة التى كان يقرع بها الحجة ويشده لها المناظر ويتحير عندها المجادل توفي والده في ٣٠ ذى الحجة عام ٦٨٢ هـ فتولى ابن تيمية مشيخة دار الحديث السكرية بعد والده .

شيوخه :

تتلمذ تقي االدين على شيوخ كثيرين منهم :

١ – شرف الدين المقدسي : أحمد بن الشيخ كمال الدين أحمد بن نعمة ابن أحمد الشافعي خطيب دمشق ومفتيها وشيخ الشافعية فيها (٦٢٢ هـ ٦٩٤ هـ) (ابن كثير ، ١٤٠٥: / ١٣)

٢ – محمد بن عبد القوي بن بدران بن عبد الله المقدسي المداوى الفقيه المحدث النحوى شمس الدين أبو عبد الله قرأ عليه ابن تيمية العربية (ولد سنة ٦٠٣ هـ وتوفي سنة ٦٩٩ هـ) (ابن رجب ، ١٩٧٢: ٢ / ٣٤٢)

٣ – تقي الدين الواسطي أبو اسحاق إبراهيم بن على بن أحمد بن فضل الصالحي الحنبلي (٦٠٢ هـ ٦٩٢ هـ) (العبر وديوان المبتداء والخبر (مجهول) ، دت: ٣ / ٣٧٨)

٤- محمد بن إسماعيل بن أبي سعد بن على الشيباني الأمدي ثم المصري شمس الدين أبو عبد الله (٦٨٧ هـ ٧٠٤ هـ) (إبن رجب ، ١٩٧٢: ٢ / ٣٥٢)

٥ – المنجا بن عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخي الدمشقي زين الدين أبو البركات (٦٣١ هـ ٦٩٥ هـ) (ابن رجب ، ١٩٧٢: ٢/ ٣٣٢)

٦ – عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن فارس العلثي ثم البغدادي عفيف الدين أبو محمد (٦١٢ هـ ٦٨٥ هـ) (العبر ،ديوان المبتداء والخبر(مجهول) دت: ٣ / ٣٥٩)

وغيرهم من الشيوخ الذين روي وأخذ عنهم والذين يزيدون علي مئتي شيخ (إبن كثير ، ١٤٠٥ هـ: ١٤ / ١٣٦)

٢،٢،٢أسرته

عاش تقي الدين في أسرة شهرة ذائقة ومكانة عالية في العلم والفضل والزعامة والإمامة في مختلف العلوم الإسلامية فهذا جدّه شيخ الإسلام مَجدُ الدين عبد السلام فرداً في زمانه رأساً في الفقه وأصوله إمام من أئمة الحنابلة بارعاً في الحديث وعلومه له اليد الطولى في معرفة القِرَأآت والتفسير وصنّف التصانيف العظيمة منها : التفسير ومنتقى الأخبار في أحاديث الأحكام والمُحَرّر في فقه الحنبلى ، واشتهر اسمه وشاع ذكره وعم فضله وُلد بحرّان سنة ٥٩٠ هـ حفظ القرآن الكريم وسمع الحديث من عمه فخر الدين وغيره من حفاظ الحديث ورحل في طلب العلم الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٠٣ هـ فأقام بها بضع سنين ثم رجع الى حرّان وبعد مدة عاد الى بغداد فازداد بها شهرة ومكانة وأمانة وتوفى بها سنة ٦٥٢ هـ (رحمه الله) (ابن رجب ١٩٧٢: ٢ / ٢٤٩)

ووالده : الشيخ شهاب الدين عبد الحليم وُلد بحرّان سنة ٦٢٧ هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٨٢ هـ وكان على غرار أبيه شيخ الإسلام عبد السلام علماً وفضلاً وصلاحاً وتقى وشهرة ومكانة قرأ الفقه الحنبلى على أبيه وتفوق فيه وأحكام أصوله وفروعه ودرس وأفتى وصنف وكان إماما مُحقّقاً كثير الفنون ديّناً حسن الاخلاق متواضعاً جواداً من حَسَنات العصر ونجوم الهدى (محمد عزير شمس وعلي بن محمد العمران ، دت: ١٨٧ ، ٢٠٥ ، ٢٨٥ ، ٣٠٥)

وكان شيخ دار الحديث السُكرية بدمشق بعد أن هاجر إليها بأسرته وأولاده إبان فتنة التتار (المغوليا) وكان لوالد تقى الدين كرسيٌ بالجامع يتكلم فيه أيام الجمع من حفظه قال عنه الأمام الذهبي : ذو الفنون ... صار شيخ حرّان وحاكمها وخطيبها بعد موت والده (العبر وديوان المبتداء والخبر (مجهول) ، دت: ٣ / ٣٤٩)

وقال ابن كثير : مفتي الفِرَق الفَارِقُ بين الفِرَق كان له فضيلة حسنة ولديه فضائل كثيرة (ابن كثير ١٤٠٥: ١٣ / ٣٠٣)

وقال ابن شاكر الكتبي : كان إماماً في التفسير مبرزاً في المذهب والخلاف وأصول الدين والنحو واللغة وكان يعرف علوما كثيرة وكان حسن الأخلاق لطيفا (ابن رجب ١٩٧٢: ٢ / ٣١٠)

ووالدته ست النعم بنت عبد الرحمن بن على بن عبدوس الحرّانية عمرت فوق السبعين توفيت سنة ٧١٦ هـ قال الإمام محمد أبو زهرة : لم يذكر المؤرخون عن أمه شيئاً ولا عن قبيلتها (أبو زهرة ، دت: ٢ / ٦٠١)

إخوته :

ولتقى الدين ثلاثة من الأخوة أشتهروا بالعلم والفضل وهم :

١- أخوه لأمه : بدر الدين أبو القاسم محمد بن خالد الحرّانى ولد سنة ٦٥٠ هـ وتوفى سنة ٧١٧ هـ كان عالماً فقيهاً إماماً تولى التدريس عن أخيه تقى الدين (محمد عزير شمس وعلى بن محمد العمران ، دت: ٣٧٣)

٢- شقيقه زين الدين عبد الرحمن بن عبد الحليم ولد سنة ٦٦٣ هـ وتوفى سنة ٧٤٧ هـ كان زاهداً عابداً كما كان تاجرا حبس نفسه مع أخيه تقي الدين يخدمه بإذن السلطان في قلعة [1] دمشق سنة ٧٢٦ هـ (محمد عزير شمس وعلي بن محمد العمران ، دت: ١٣٣ ، ١٩٩)

٣- شقيقه شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم ولد سنة ٦٦٦ هـ

---

(١) وتسمى الأسد الرابضي : وهي قلعة حصينة يمر من عند النهر بناها تاجُ الدولة تتشِ سنة ٤٧١ هـ وبنت فيها دار الإمارة وصارت مدينة كاملة لكنها محصنة وفي سنة ٦٩١ هـ أكمل قاعاتها ودورها (البدري ، دت : ٦٠)

وتوفى سنة ٧٢٧ هـ كان شرف الدين عالماً متبحراً وذهب مع أخيه الى مصر وناظر خصومه – القاضي المالكي زين الدين بن مخلوف – وحده فانتصر عليهم (الألوسي البغدادي ،دت: ٤٢ – ٤٣)

٢،٢،٣ نشأته

وُلد ابن تيمية (رحمه الله) في بيئة علمية عريقة في العلم والدين والزهد والتقوى ذات عقيدة سلفية راسخة فجده كان من كبار الأئمة وهكذا أبوه ثم إخوانه والعلماء الآخرون من الأسرة ، في هذا البيت الورع التقي المتدين نشأ إبن تيمية فأشرب العلم والدين ونَهَجَ كَآلَهُ علماً وتديناً ذرية بعضها من بعض في العلم والفضل والنبل (ابن تيمية ، ١٤٠٥: ١ / ٦)

وقد تحقق الأمر لتقي الدينُ فقد لازم أباه وكان في معدن العلم بدمشق ودمشق في عهد ابن تيمية عش العلماء وقد آوت أسرته الى ذلك العش الكريم ، وفي هذه المدينة الجديدة كان هناك عددٌ كبير من العلماء في كل علمٍ وفَنٍ وكان فيها مدارس للحديث والفقه الشافعي والفقه الحنبلى وغيرهما ويدرسون مع الفقه الحديث دراسة فاحصة لرجال الأسانيد ومتون الأحاديث وموازنة المرويات بعضها ببعض وكان يحفظ الكثير من دواوين السنة ومن جملة محفوظاته : الجمع بين الصحيحين للحميدي وهو أول كتاب حفظه في الحديث وكانت في دمشق مع الفقه والحديث دراسة العقائد (أبو زهرة ،دت: ٢ / ٦٠٤)

و لم تكن دراسة ابن تيمية مقصورة علي علوم الدين وحدها من كتاب وسنة وفقه السنة ومعاني القرآن بل عنى بأداة هذه العلوم وهي : علوم العربية فدرسها كأنه يقصد اليها ليتخصص فيها فحفظ كثيرا من المنثور والمنظوم وأخبار العرب في القديم وأيام ازدهار الدولة الإسلامية وبرع في النحو براعة واضحة وبجانب هذه العلوم الزاخرة كان يُرهِفُ فكره وعقله بالعلوم الرياضية وبآراء الفلاسفة (أبو زهرة ،دت: ٢ / ٦٠٣)

ونشأة ابن تيمية (رحمه الله) في مثل هذا الجو المليئة بالعلم والعلماء أثرّت في شخصيته وتركت آثاراً بعيدة في حياته العلمية لذا وقد امتاز منذ نعُومة أظفاره بثلاث صفات هي التي سارت به نحو الكمال ونحو العلم الناضج وهذه الصفات هي :

أ- الجد والاجتهاد والمثابرة فكان (رحمه الله) يجتهد في سبيل طلب .

ب- تيقظ حسه وتفتح عقله ونفسه لكل ما حوله يدركه ويعيه .

ج- الذاكرة الحادة والفكر المستقيم .

١) توليه التدريس في كرسي أبيه :

إتسعت آفاق دراسة ابن تيمية وكانت دراساته مستوعبة في الفقه والحديث والعقائد وعلوم العربية وكان له اطلاعٌ على العلوم الرياضية والفلسفية تقدم بعلمه ودراساته واستعداده لتلقى المعارف من كل ناحية فألقى دروسه في الجامع الكبير بدمشق بلسان عربي مبين فاتجهت اليه الأنظار واستمعت اليه أفئدة سامعيه وانتقل كثير من المستمعين الى مريدين متحمسين معجبين فصارله من بينهم مخلصون له إخلاص الحواريين وكانت دروسه تجمع الموافق له والمخالف والبدعيّ والسنّ ومعتنقي مذهب الشيعة ومن هو مع الجماعة (أنظر أبو زهرة ،دت: ٢/ ٦٠٥)

و لم يكتف بما يلقى في حلقة درسه وما يلقيه على العامة في الجامع الكبير إذ قسّم دروسه الى قسمين :

أحدهما للخاصة يذاكرهم الحقائق التي انتهى الى وجوب تقريرها .

والآخرللعامة يعظ فيه ويرشد ولكنه مع ذلك أضاف اليه رسائل كان يكتبها ويجيب بها عن الأسئلة التي تأتى اليه من المستفهم الطالب للحقيقة فيُبَيّن له ... ويُشَيّع أقواله بالرسائل والاجابات كما شاعت بالدرس والالقاء (أبو زهرة ،دت:٢/ ٦٠٧)

٢) أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر :

وكانت له في ذلك مواقف عظيمة منها :

١- كسره للأصنام والأماكن التى تُعّظم من دون الله كصخرة في دمشق يُعظمها الناس ويقبلُونها ويزعمون أن فيها أثر قبر نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما ينهى عن إتيان المشاهد وتعظيمها وكان ينهى الذين يحلفون إذا أردوا تغليظ أيمانهم حلفوا عند مشهد الحُسين (عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، ١٤١٥هـ: ١ / ١٥٩)

٢- قام باستتابة شيخ يسمى إبراهيم القطان وحلق رأسه وقلم أظافره وكانت طويلة جدا واستتابه من كلام الفحشى وأكل ما يغير العقل وما لايجوز من المحرمات .

٣- ضرب عنق ناصر بن شرف الهيثمى لكفره واستهتاره بآيات الله شهد قتله ابن كثير (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤ / ١٢٢ – ١٢٣)

٤- قام مع أصحابه على الخمّارات والحانات فكسّروا آنية الخمور وأراقوها وعزرُوا جماعة من أهل الحانات ففرح الناس بذلك (إبن كثير ١٤٠٥: ١٤/ ١١)

٥ – وحصل في سنة ٦٩٣ هـ أن عساف ابن أحمد بن حجى النصراني حين سب النبي ﷺ فقام عليه ابن تيمية ودخل علي الأمير يشكى ما قاله عساف (ابن كثير ١٤٠٥: ١٣ / ٣٣٥ – ٣٣٦)

٦ – أما موقفه من السلاطين فمشهورة وأشهرها موقفه من قازان سلطان التتار وكيف أنه كلمه بكلام قوي عن أعمالهم وافسادهم وانتهاكهم لحرمات المسلمين مع ادعائهم الأسلام (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤ / ٨٩)

٧ – موقفه من الناصر حين عاد إلي سلطنته للمرة الثالثة وأفرج عن ابن تيمية فعرض وزيره مسألة أهل الذمة وأنهم يريدون أن يدفعوا أموالاً على أن لايلزموا باللّباس المخصوص بهم فاستشار السلطان الناصر العلماء الحاضرين وكان من بين الحاضرين ابن تيمية (رحمه الله) فتكلّم ابن تيمية بكلام غليظ حتى رجع السلطان من موقفه (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤ / ٥٤)

٨ – وكان لإبن تيمية تأثير علي السلاطين ليقوموا بدورهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمثلاً حين اشتهرت الرشوة وأصبح لها دور في تولية بعض

المناصب بل وفي إسقاط الحدود في سنة ٧١٢ هـ ورد خطاب إلى دمشق من السلطان أن لا يوالى أحد بمال ولا رشوة وأن يقتص من القاتل بحكم الشرع صدر هذا الحكم بعد تشاوره مع عدد من العلماء منهم ابن تيمية (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤ / ٦٦)

٩- حين عقد مجلس لليهود الخَيَابِرة [1] وألزموا بأداء الجزية أسوة بأمثالهم من اليهود فأحضروا كتابا معهم يزعمون أنه من رسول الله ﷺ بوضع الجزية عنهم فلما وقف عليه الفقهاء تبينوا أنه مكذوب مفتعل وحقّقهم عليه شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) وبيّن لهم خطأهم وكذبهم وأنه مزوّرٌ مكذوب فأنابوا إلى أداء الجزية (عبد الرحمن بن عبد الجبار ١٤١٦: ١ / ٣٣)

هذه نماذجَ من مواقف ابن تيمية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو لم يكن في حياته إلّا هذا الجانب لكان دليلاً على جهاده وصبره ومما يلحظ في هذا الجانب وفي غيره أن ابن تيمية كانت له جماعة من أصحابه يستعين بهم وينفذون معه ما يريد ويصحبونه في حالات أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر كما نلحظ أن تبوئَهُ لتلك السلطة وذلك النفوذ إنما كان لسبب علمه الغزير ولذلك صار ابن تيمية موضع ثقة الناس في كل ما يأمر وينهي .

٣) شجاعته وبطولته :

وكان الإمام ابن تيمية جريئا شجاعا بالغ الجُرأة في مناصرة الحق لايداهن ولا يرائي حتى لقد ألّبَ عليه من شجاعته وجُرأته في قول الحق كثيرا من الخصوم ذوي النفوذ والجاه والسلطة في زمنه ، أما بطولته الحربية فهو ما سجّله التاريخ ففي رمضان سنة ٧٠٢ هـ الموافق مارس سنة ١٣٠٣ م التقى المغول والمماليك بقيادة الملك (الناصر) عند مرج الصفر على مقربة من حمص وثمت دارت الدائرة على المغول وهزمتهم هزيمة ساحقة نتج عنه هلاك معظم جيش المغول وأسر عشرة آلاف جندى منهم حتى لم تقم

---

(١) الخيابرة منسوب ليهود خيبر وخيبر هي : واحة بالحجاز بالمملكة العربية السعودية على بعد ٩٥كم شرق المدينة وتقع في حرة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٨٥٠ م بها عدة قرى أهمها خيبر التي تقع في وادي الزيدية أكبر وديان المنطقة كان يزل بها اليهود في صدر الإسلام (محمد شفيق غربال وآخرون، ١٩٧٢: ٧٧٠)

لقازان ملك المغول بعد ذلك قائمة و لم يجرؤ على مقاتلة المصريين مرة أخرى (محمد عزير شمس وعلي بن محمد العمران ،دت: ٦٦ ، ١٩٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨)

وكان لابن تيمية الأثر الكبير في انتصار المسلمين فهو الذي دعا إلى نفرة المسلمين للجهاد واشترك بنفسه في المعركة هو وأخوه وكانت دعوته وحماسه يُثيران في نفوس الجند حب الاستشهاد في سبيل الله ولقد وقف هو في المعركة عن حب ورغبة طالبا الاستشهاد في سبيل الله .

وجهود ابن تيمية في جهاد التتار يمكن تلخيص أهم أحداثها فيما يلى :

١- في عام ٦٩٧ هـ وفي يوم الجمعة ١٧ شوال عمل ميعادا للجهاد وحرّض عليه وبيّن أجر المجاهدين وكان ميعادا حافلا جليلا (ابن كثير ١٤٠٥: ١٣ / ٣٥٢)

٢- وفي عام ٦٩٩ هـ حين قدم قازان بجيوشه الى الشام كانت له مواقف :

أ- ففي الاثنين ثالث ربيع الأخر توجه ابن تيمية وأعيان البلد إلى قازان لمقابلته وأخذ الأمان للبلد وكلمه ابن تيمية كلاما قويا شديدا وكان في موقفه مصلحة عظيمة عاد نفعها للمسلمين (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤ / ٧ – ٨)

ب- ولما كان التتار يحاصرون مدينة دمشق فأرادوا الاستيلاء على قلعتها الحصينة فأرسل ابن تيمية الى نائب القلعة يقول له : لو لم يبق فيها إلا حجرٌ واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت وقد حفظ هذا الحصن و لم يدخله التتار (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤/ ٨)

ج- خرج ابن تيمية مرة ثانية لمقابلة ملك التتار في العشرين من ربيع الآخر فلم يتمكّن من ذلك (ابن كثير، ١٤٠٥: ١٤ / ٨)

٣- في سنة ٧٠٢ هـ كانت وقعة شَقحب التى هزم فيها التتار وكان لأبن تيمية دور عظيم فيها (ابن كثير ، ١٤٠٥: ١٤/ ٢٥)

٤- وفي سنة ٧١٢ هـ وابن تيمية في مصر بعد محنته وسجنه ثم الافراج عنه خرج مع السلطان قلاوون للجهاد في سبيل الله (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤/ ٢٧)

أما جهاده للنصارى والرافضة فلم تشر أكثر المصادر إلى دور ابن تيمية في جهاد النصارى قبل إجلائهم عن الشام نهائياً إلاّ أن عمر بن علي البزار – المولود سنة ٦٨٨ هـ والمتوفي سنة ٧٤٩ هـ – يذكر أن فتح عكا [١] كان سنة ٦٩٠ هـ فيكون عمر ابن تيمية وقتها قرابة الثلاثين عاما ، فلا يستبعد أن يشارك في فتحها خاصة أن أحداث هذه السنة جاء البريد إلي دمشق ونودي في دمشق إلى الغزاة في سبيل الله إلي عكا وخرجت العامة والمتطوعين يجرُون في العجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء (ابن كثير ١٤٠٥: ١٣/ ٣٢٠)

وإذا كانت الحالة هذه فلا يستبعد أن يتخلّف ابن تيمية مع شغفه بالجهاد في سبيل الله ، أما الرافضة : فقد كانوا يتحصنون في الجبال وقد ذهب إليهم ابن تيمية سنة ٤٠٧ هـ ومعه جماعة من أصحابه لقتال هؤلاء بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسّره التتار وهربوا حين اجتازوا ببلادهم فقد وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم وقتلوا كثيرا منهم فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى ابن تيمية (رحمه الله) فاستتاب خلقاً منهم وألزموهم شرائع الإسلام وبيّن للكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين والتزموا برد ماكانو أخذوه من أموال الجيش وقرّر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤ / ٣٥)

وفي سنة ٧٠٥ هـ خرج ابن تيمية ومعه طائفة من الجيش ضد التتار فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقا منهم ومن فرقتهم الضالة وقد حصل بسبب شهود ابن تيمية هذه الغزوة خير كثير (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤ / ٣٥)

هذه خلاصة شجاعته وبطولته وأسلوبه في معالجة هذه الفتن العظيمة التى حلّت بالمسلمين وفيها يتبين كيف أن هذا الإمام ذا المواقف المشهودة في مجال العلم وتوضيح الحق للناس كان إماماً في الجهاد وكان مثالاً للشجاعة وقوة القلب وصدق اليقين بوعد الله في وقت ذهلت فيه قلوب الرجال .

---

(١) ويقال عكة وهي مدينة حصينة علي ساحل بحر الشام من عمل الأردن ، معجم البلدان،دت : ٤ / ١٤٣ .

٤) محنه وسجنه :

إمتحن شيخ الإسلام ابن تيمية مِحَناً عديدة وما تكاد تنتهى إحدى المِحن حتى تبدأ محنة أخرى حتى لقى ربه وهو في سجن القلعة بدمشق ومن المحن التى مر بها :

١ – محنته بسبب الحموية :

وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ ومُلخص هذه المحنة حينما ورد عليه سؤال من حُمَاة [1] يقول فيه صاحبه : ما قول السادة العلماء أئمة الدين أحسن الله إليهم أجمعين في آيات الصفات كقوله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] ومن أن كرسيه وسع السموات والأرض إلي غير ذلك (ابن تيمية ، دت: ٤١٤)

فأجابهم بالرسالة الحموية التى يُقرّر فيها أنه لايؤول بل يُقرّر أن لله استواءً لا نعلمه وكرسياً لا نعلمه وهو ليس من استواء الحوادث ولا كرسي الحوادث وكذلك في كل آيات الصفات وأحاديثها وبيّن هذا كله في رسالته الحموية وذلك يخالف بعض مذهب أبي الحسن الأشعري الذي يُقَرِرُ بالتأويل والذي كان شائعاً ويتعصب له الوُلاة والرعية (محمد عزير وشمس وعلي بن محمد العمران ،دت: ٤١٠)

وفي هذه العقيدة يبسط ابن تيمية مذهب السلف ﷺ وصرّح في مثل هذه الآيات مُؤيدًا ذلك بالنقول عنهم ولكن ذلك لم يرض علماء الكلام في عصره وعدّوه نُزُوعاً منه إلي التجسيم والتشبيه (محمد خليل هراس ١٤٠٤ ، ٢٧)

فقاموا يشكُونه الى القاضى الحنفي – جلال الدين بن حُسَام الدين توفي سنة ٧٤٥ هـ – وطلب القاضى حضور ابن تيمية فلم يحضر وإنما أجابه بقوله : إن العقائد ليس أمرها إليك وإن السلطان إنّما ولّاكَ لتحكم بين الناس وإن إنكار المنكرات ليس مما يختص به القاضي " فلمّا وصل الى القاضى هذا الجواب غضب وأمر بأن ينادي في البلد ببطلان هذه العقيدة ولكن الأمير سيف الدين جاغان أرسل طائفة الى المنادى فضرب ومن كان معه (عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ١٤١٥: ١ / ١٥٩)

ثم بعد ذلك اجتمع ابن تيمية بالقاضى الشافعي – إمام الدين القزويني–

---

(١) مدينة كبيرة في الشام كثير الخيرات واسعة الرقعة (معجم البلدان ,دت:٢ /٣٠٠)

وواعده لقراءة جزئه الذى أجاب فيه وهو المعروف بالحموية [1] فاجتمعوا يوم السبت رابع عشر من شهر ربيع الأول فقرئت جميع العقيدة وبَيّنَ مراده من مواضع أشكلت – من آيات الصفات – ولم يحصل إنكار عليه من الحاكم ولا ممن حضر المجلس ورجع ابن تيمية إلى داره في ملاء كثير من الناس وهم في فرح واستبشار به (عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ١٤١٥ : ١/ ١٧٨)

٢ – محنته ومناظراته حول رسالته المسمى" بالعقيدة الواسطية " [2]

وبداية هذه المحنة في يوم الأثنين ٨ رجب سنة ٧٠٥ هـ حين ورد مرسوم من السلطان في مصر إلي نائب الشام أن يسأل الشيخ عن عقيدته فجمع النائب القضاة والفقهاء وابن تيمية فقال النائب : هذا المجلس عُقِد لك لمُسألتك عن عقيدتك أجاب ابن تيمية بقوله : أما الأعتقاد فلا يُؤخذ عنى ولا عمن هو أكبر مني بل يُؤخذ عن الله ورسوله ﷺ وما أجمع عليه سلف الأمة فما كان في القرآن وجب اعتقاده وكذلك ماثبت في الآحاديث الصحيحة مثل صحيح البخارى ومسلم وأما الكتب فما كتبتُ إلي أحد كتابا ابتدأ أدعوهُ به إلي شيء من ذلك ولكنني كتبتُ أجوبَةً أجبتُ بها من يسألني من أهل الديار المصرية وغيرهم وكان قد بلغني أنه زوّر علي كتاب إلي الأمير ركن الدين الجاشنكير [3] يتضمن ذكر عقيدة مُحرّفة ولم أعلم بحقيقته لكن علمتُ أن هذا مكذوب ، وكان يَرِدُ عليّ مِن مصر وغيرها مَن يسألني مسائل في الاعتقاد أو غيره فأجبته بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة (العقود ، دت: ٢٠٧ – ٢٠٨ نقلا عن عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ١٤١٥: ١ / ١٧٩)

ثم طلبوا من ابن تيمية أن يُملي عقيدته وكان ابن تيمية يشك في نوايا خصومه إن أملاها لهم عقيدته لما عرف أنهم يكذبون عليه وإن أملى الاعتقاد من حفظه

---

(١) المعروف بفتوى الحموية الكبرى أنظر تفاصيل الإجابة في رسالته – الفتوى الحموية الكبرى – طبع دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

(٢) ذكر ما ورد فيها من اعتراضات ومناقشات حول التحريف والتأويل ومسألة الحرف والصوت الخ أنظر العقيدة الواسطية لإبن تيمية (رحمه الله) طبع المكتبة العلمية بيروت لبنان (د ت) .

(٣) هو : بيبرس البرجي الجاشنكير توفي سنة ٧٠٩ هـ (عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ١/ ١٧٩)

(رحمه الله) ربما يقولون : كتم بعضه أو داهن أو دارى لذا أحضر ابن تيمية عقيدة مكتوبة – العقيدة الواسطية – وقرئت وتناقشوا فيها ، ثم أجلت بعض المباحث منها إلي يوم الجمعة بعد الصلاة ١٢ رجب وفي هذه المرة أخذوا أهبتهم في الأستعداد للمناظرة وأحضروا معهم من يعتبرونه أكبر شيوخهم وهوصفي الدين الهندى [1] واستعانوا به لزعمهم أنه من مُحققي المذهب الأشعري فلما أجتمعوا بدأ ابن تيمية الكلام ثم خطب خطبة مؤثرة وذكر أن الله أمرنا بالجماعة والائتلاف ونهانا عن الفرقة والأختلاف ثم دار نقاش حول عدة قضايا : حول صفة الكلام والتجسيم والاشتراك والتواطؤ وكان ابن تيمية إذا تكلم لم يستطعوا ردّ كلامه وأدلته لقوة فصحاته وبيانه وانتهى النِقَاش ورجع ابن تيمية إلي بيته معززاً مكرماً (ابن كثير ،١٤٠٥: ١٤ / ٣٧)

ثم اجتمع مرة آخرى في ٧ من شعبان نفس السنة وفي هذا الاجتماع صدر قرار من الجماعة – العلماء الذين طلبوا مناقشته حول العقيدة الواسطية – برأة ساحة ابن تيمية مما نسب إليه من المُجسّمة وغيرها (ابن كثير،١٤٠٥: ١٤ / ٣٧) .

٣ – محنته بسبب فتواه في مسألة " الطلاق "

وكان من نتيجة ذلك ترجيحه في بعض مسائل الأحكام ما يُخالف فقهاء عصره ومن هذه المسائل مسألة الحلِف بالطلاق هل يكون طلاقاً إذا حَنَثَ فيه كما يري الجمهور أم يكون يميناً إذا كان القصد به اليمين كما رجحه ابن تيمية وصار يفتي فيه ومسألة اعتبار الطلاق الثلاث بكلمة واحدة طلاقاً رجعياً وكان لمترلة ابن تيمية ومكانته عند الناس أبعد الأثر في انتشار مثل هذه الفتاوى والاقتناع بها فاجتمع جماعة من كبار العلماء إلى القاضى الحنبلى – شمس الدين بن مسلم – وكلمُوه في أن يكلم ابن تيمية وأن يشير عليه بترك الإفتاء في الحلف في الطلاق فقَبِل ابن تيمية إشارته ونصيحته وترك الإفتاء بها وذلك في سنة ٧١٨ هـ ثم إنه (رحمه الله) عاد إلى الإفتاء مرة أخرى وقال لايسعنى كِتمان العلم وحكم بحبسه في القلعة – نفس القلعة التي ذكرناها – فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوما ثم ورد مرسوم بإخراجه فأخرج منها يوم الأثنين سنة ٧٢١ هـ ثم

---

(١) هو : محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي الهندى ولد سنة ٦٤٤ هـ وتوفي سنة ٧١٥ هـ . (عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ،١٤١٥: ١/ ١٧٩)

تفرغ للعلم والتدريس والإفتاء (ابن كثير١٤٠٥: ١٤ / ٧٨ – ٩٨ محمد عزير وشمس وعلي بن محمد العمران ،دت: ٢٨٩)

٤– محنته بسبب فتواه في " شد الرحال إلى القبور "

والذى يبدو أن أعداء الشيخ لم يجدوا في مسألة الطلاق كل ما يأملونه وإن كان قد سجن بسببها فصاروا يبحثون وسيلة وقضية أخرى يعملون من خلالها على إيذاء شيخ الإسلام وأتباعه فعثروا على فتوى له حول شد الرحال وإعمال المطي إلى قبور الأنبياء والصالحين ومنها قبر النبى ﷺ وكانت الفتوى تتضمن ذكر القولين – الجواز والتحريم – ورجح ابن تيمية أحدهما – وهو التحريم – مع الأدلة على ذلك [1] وبسبب هذه الفتوى صدر مرسوم في سنة ٧٢٦ هـ بإقامته في سجن القلعة وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه (محمدعزير وشمس وعلي بن محمد العمران ،دت: ٢٨٩ ، ٣١٣)

الذين يتعرضون لمثل هذه الابتلاءات والمحن كثيرون وقد كان شيخ الإسلام واحداً من هؤلاء والمحن التى مرّ بها تحولت بفضل الله وعونه له إلي خير كثير للإسلام والمسلمين وعزة لعقيدة أهل السنة والجماعة التى يدعو إليها .

٢،٢،٤ صفاته :

فابن تيمية كان أبيض البُشرة أسود الرأس واللحية قليل شيّب اللحية شعر رأسه إلى شُحمة أذنيه ربعة من الرجال بعيد بين المنكبين أبيض العينين جَهري الصوت فصيحا سريع القراءة (محمد عزير وشمس بن علي بن محمد العمران ،دت: عدد صفحاتها ٢٠٩، ٣٠٨، ٣٢٨، ٤٠٩، ٤٧٤، ٥٣٨، ٥٨١؛ ٥٩٨، ٦٢٨،)

إختصه الله سبحانه وتعالى بصفات كانت هي البذرة الأولى التى نمت واستوت على سوقها فكانت ذلك العالم الجليل وما نمت إلا بما سقيت من ماء وما تهياء من جو وتربة صالحة وذلك بالدراسة العميقة والعصر الذى عاشت فيه وأولى هذه الصفات :

---

(١) أنظر التفاصيل في رسالته المسمى " التوسل والوسيلة " طبع دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

١- حافظةٌ واعية وهى أساس العلم وبمقدارها ومقدار القدرة على استخدامها يكون قدره وسط العلماء وقد بدت هذه الظاهرة في صدر حياته واستمرت ملازمة له حتى وفاته .

٢- العُمقُ في التفكير فقد كان (رحمه الله) يدرس المسائل متعمقاً وكان يدرس الآيات والآحاديث وقضايا العقل ويوازن ويقايس بفكر مستقيم حتى يَنبلج له الحق واضحا فلم يكن (رحمه الله) حافظا واعيا فقط بل كان مدركا متأملا مستنبطا فاحصا يردِد البصر ويسبر غور المسائل حتى يصل فيها الى نتائج محققة وما يصل اليه تدهش له العقول ويحير الخصوم .

٣- حضور البديهة فقد كان مع قوة حافظته وتعمقه في الدراسة حاضر البديهة تخرج اليه المعانى من مكامنها سريعة وكان ذلك يبدوا في دروسه فإرسال المعانى تجىء اليه من غير اجهاد وعند المناظرة يفحم الخصوم بكثرة ما يحفظ وبحضور ما يحفظ والبديهة الحاضرة بالنسبة للخطيب والمناظر كأدوات الحرب السريعة للمقاتل تصيب المقاتل وتقطع مفاصل القول وتربك الخصم ولهذه الصفة كان خصوم ابن تيمية يهابون لقاءه ومن لايعرفها فيه ويغتر بحجته اذا لقيه يكون عبرة المعتبرين .

٤- الاستقلال الفكرىّ ولعل هذه الصفة أبرز الصفات في تكوِين علمه وشخصيته العلمية التى جعلت له مزايا خاصة كشهرته الواسعة ليست في غيره من العلماء الذين عاصروه .

٥- الاخلاص في طلب الحق والطهارة من أدران الهوى والغرض في طلب الدين وكشفه للناس والاخلاص يقذف في قلب المؤمن بنور الحقيقة ويجعله يدرك الأمور ادراكا مستقيما .

وقد تجلى إخلاص ابن تيمية في أمور منها :

أ- بُعده عن المناصب أو أخذ رواتب من الدولة وكان ذلك عن عزمٍ منه وتصميم فلم يتول القضاء أو الإمارة كما لم يأخذ أجراً على الدروس التى كان يلقيها في دور الحديث أو الجامع .

ب- جهاده في سبيل الحق ولو كان بالسيف يحمله وقد كان يتحمل البلاء الشديد في سبيل اعلاء رأيه وقد تحمل في هذا السبيل السجن المستمر من أعدائه .

ج- عفوه عمن يسئ اليه حيث عفا عن العلماء الذين كان سبباً في سجنه وعفا عمن ضيقوا عليه في آخر حياته .

٦- فصاحته وقدرته البيانية فقد كان (رحمه الله) خطيبا وكاتبا جمع الله سبحانه وتعالى له بين فصاحة اللسان والقلم ويظهر أن هذه الموهبة وراثية في أسرته فقد كان أبوه متكلما مجيدا وقد قوى تلك الملكة البيانية كثرة قراءته للقرآن وترديده للسنة النبوية .

٧ - الشجاعة والصبر وقوة الاحتمال ، فقد اتصف بالشجاعة في ميدان الحرب والقضاء على الفساد في مدة الفوضى التي أوجدها غزو التتار لمدينة دمشق الفيحاء – كما سنعرفه قريبا - وبدت شجاعته الأدبية طول حياته فتجرّد للمخالفين واتجه الى السنة وأعلنها ولو خالفت كل مألوف عند الناس وكانت هي سبب بلائه فلما نزل البلاء بدت فيه الصفتان – الصبر وقوة الاحتمال – أما الصبر فقد كان الصبر الجميل الذي لا يتبرم فيه ولا يتململ أما قوة الاحتمال فقد بدت في احتفاظه بكل مواهبه يعمل انقطع عن الناس نحو سنتين لم يلن و لم يضعف و لم يحس بإرهاق بل أحس بوجوب العمل ثم كان له مع هذه الصفات هيبة يضطرب أمامها الخصوم (أبو زهرة ،دت: ٢ / ٦٢٨ – ٦٣١ عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ١٤١٥ : ١ / ١٧٠ وابن تيمية ،دت: ١ / ٨ – ٩ ومحمد عزير وشمس بن علي بن محمد العمران ،دت : في عدد صفحاتها ٦٨، ١٩٣، ٢٠٦، ٢١٢، ٢١٧، ٢٨٧، ٣٠٧، ٣٣٧، ٣٦٨، ٤٠٠، ٤١٥)

١) وفاته :

وفي سجن القلعة ليلة الاثنين الموافق العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ كانت وفاته على أثر مرض ألمّ به أياماً يسيرة فقد كانت وفاته مفاجئة للناس جميعا فقد أصيبوا بصدمة وما كادوا يعلمون صباح الاثنين حتى خرجوا جميعا في جنازته (محمد عزير وشمس بن علي بن محمد العمران ،دت : ١٣٢ وما بعدها)

وحضروا الى القلعة وسمح لهم برؤيته وتزاحمت الناس بالقلعة وبالطريق الى الجامع الأموى بدمشق الذي امتلأت ووضعت الجنازة في الجامع وأحاط بها الجند يحفظونها من الزحام وصلّى عليه في الجامع الأُموى وكان يوما مشهودا ضاقت الرحاب والأزفة والأسواق وخرج من الجامع من أبوابه كلها كل باب أشد زحمة من الآخر ، ثم حمل على رؤوس الأصابع واشتد الزحام وعلت الأصوات بالترحُم عليه والثناء والدعاء له ، وألقى الناس على نَعشِهِ مناديلهم وعمائمهم وثيابهم وخرج الناس من أبواب البلد جميعها وزاد في الزحام كثرة من أتى من أهل القرى وغيرهم ولم يتخلف إلاّ من هو عاجز (محمد عزير وشمس بن علي بن محمد العمران ،دت : ١٣٥ ، ١٩٨ ، ٢١٤ ، ٢٥٣ وأبوزهرة ، دت: ٢ / ٦٢٧ وابن تيمية ١٤٠٥ : ١١)

وهكذا إنتهت حياة الشيخ التي كانت حافلة بالأحداث والجهاد والكفاح في سبيل إعلاء راية الإسلام لم يخرج فيها عن المنهج الذي رسمه لنفسه في نصرة دين الله وإظهار شريعته سائرا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ رحمه الله وجزاه عن هذه الأمة خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته مع الصدقين والشهداء .

٢) تلاميذه والمتأثرون به :

يقول الشيخ عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود : من الصعب الإحاطة بتلاميذ ابن تيمية والمتأثرين به لأن كتبه ومنهجه تحول إلي مدرسة كبرى لها تلاميذها الذين تحولوا إلي شيوخ كبار وهذه المدرسة قائمة إلي اليوم – علي حدّ قوله – ومنتشرة في العالم الأسلامي لأنها تسير علي وفق منهج السلف – أهل السنة والجماعة – ومن ثم فهي لا تنسب إلي شخص أو طائفة بل تحصر انتسابها في متابعة الكتاب والسنة والسير علي طريق الرسول ﷺ والسلف الصالح ﷺ فليس لإبن تيمية ولا لمن بعده إلاّ فضيلة تجديد ما اندرس أو نسي منها وبذل الجهد في الدفاع عنها والدعوة إليها (عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ١٤١٥: ١ / ١٩٧)

ونشير بأجمال إلي بعض تلاميذه والمتأثرين به فمنهم :

١- ابن القيم : محمد بن أبي بكر ، ت سنة ٧٠١ هـ

٢- الذهبي : محمد بن أحمد ، ت سنة ٧٤٨ هـ

٣- المزي : يوسف بن عبد الرحمن ، ت سنة ٧٤٢ هـ

٤- ابن كثير : إسماعيل بن عمر ، ت سنة ٧٧٤ هـ

٥- ابن عبد الهادي : محمد بن أحمد عبد الهادي بن قدامة ، ت سنة ٧٤٤ هـ

٦- البزار : عمر بن علي ، ت سنة ٧٤٩ هـ

٧- ابن قاضي الجبل : أحمد بن حسن بن عبد الله بن عمر بن قدامة ، ت سنة ٧٧١ هـ

٨- ابن فضل الله العمري : أحمد بن يحي بن فضل الله بن المحلي بن دعجان ،ت سنة ٧٤٩ هـ

٩- محمد بن المنجا بن عثمان التنوخي ، ت سنة ٧٢٤ هـ

١٠- يوسف بن عبد المحمود بن عبد السلام البتي ، ت سنة ٧٢٦ هـ

١١- ابن شيخ الحزميين : أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي ، ت سنة ٧١١ هـ

١٢- أبو العباس الزرعي : أحمد بن موسى ، ت سنة ٧٦١ هـ

١٣- شمس الدين الأصبهاني : محمود بن عبد الرحمن بن أحمد ، ت سنة ٧٤٩ هـ

١٤- محمد بن أحمد أبي نصر الدباهي الزاهد شمس الدين ، ت سنة ٦٣٦ هـ

١٥- محمد بن عمر بن عبد المحمود الحراني ، ت سنة ٧١٨ هـ

١٦- ابن أبي النجيح : شرف الدين بن محمد بن سعد الله ، ت سنة ٧٢٣ هـ

١٧- وأخوه : زين الدين عمر بن سعد الله ، ت سنة ٧٤٩ هـ

١٨- محمد بن عمر بن قوام البالس ، ت سنة ٧١٨ هـ

١٩- السرمري : يوسف بن محمد بن مسعود العقيلي ،ت سنة ٧٧٦ هـ

٢٠- يعقوب بن فارس الجعبري ، ت سنة ٧٢٦ هـ

٢١- علي بن أحمد بن هوس الهلالي ، ت سنة ٧٢٧ هـ

٢٢- محمد بن علي البابا الحلبي العوام ، ت سنة ٧٢٥ هـ

٢٣- إبراهيم بن المولة البعلبكي ، ت سنة ٧٢٥ هـ

٢٤- عبد الله بن موسي الجزري ، ت سنة ٧٢٥ هـ

٢٥- أم زينب : فاطمة بنت عباس ، ت سنة ٧١٤ هـ

وغيرهم كثير ذكرهم في الرد الوافر .

٣ ، ٢ أحوال ابن تيمية

إن دراسة عصر ابن تيمية (رحمه الله) لها أهمية كبيرة لمعرفة أفكاره وتقويم أعماله لأن الإنسان يتأثر بطبيعة الحال بالحالة التي ولد فيها وعاش ومارس أحداثها لم يكن العلماء في عصر ابن تيمية قابعين في بيوتهم للتأليف والجمع فقط وإنما كانوا يقومون بدوركبير في التدريس والقضاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ومن العلماء الذين كانت له مواقف مشهودة سياسيًا واجتماعيًا وعلميًا شيخ الإسلام ابن تيمية ، لأنه رأى السلف الصالح من الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا علماء ومجاهدين ومدبرين لشئون الدولة (أبو زهرة ،دت: ٢ / ٦٣١ – ٦٣٢)

ومن المعلوم أن شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) من الشخصيات النادرة التي تأثرت بالحالة التي عاش فيها تأثرا كان له آثارا بعيدة في اتجاهه العام لما قام به من أعمال جليلة ومواقف حميدة ولذلك كان موقفه السياسي والاجتماعي والعلمي موقفاً مشهوداً .

١،٣،٢حالته السياسية :

كانت البلاد الإسلامية في العصور الوسطى عبارة عن مماليك صغيرة يحكمها أُمراء من العجم غير خاضعين لسلطان الخلافة في بغداد وكثيرا ماكان يَحفزهم الطمع في

سعة الملك وعظمة السلطان إلى مقاتلة بعضهم بعض حتى كان بعضهم لا يتورّع في سبيل ذلك أن يستعين بالروم وغيرهم من أعداء الإسلام على غزو من جاورهم من المسلمين (مصطفى محمد رمضان ،دت: ٧ و محمد خليل هراس ١٤٠٤ : ١٤)

ولم يكن مركز الخلافة في بغداد قوياً إلي الحد الذي يستطيع معه إخضاع هذه المماليك وضمها إلى حوزته فقد ضعف الخلفاء العباسيون إبان انهزام دولتهم وأصبحوا لعبة في أيدي المتغلبين عليهم من الأتراك وغيرهم يتصرفون فيهم على حسب ما توحى به أهواؤهم ومصلحتهم الخاصة من تَوليةٍ وعزلٍ وتعذيبٍ وتمثيلٍ (عبد الفتاح رزق ١٤٢٠: ١٧٦ – ١٧٨)

كان لهذا التفكك والانقسام بين أُمراء الإسلام أثره اللازم ونتيجته المحتومة وهى ضعف المسلمين عن مقاومة أعدائهم من التتار والصليبين فالصليبيون قد نزلوا ببلاد الشام واستولوا على معظم مدنه الساحلية حتى اقتحموا مدينة المقدسة سنة ٤٩٢ هـ (فتحي عيد ،دت: ٣٨)

وهكدا غزا الصليبيون بلاد الإسلام واحتلوا بيت المقدس هدفهم الكبير وذبحوا المسلمين بشكل رهيب وفجّع العالم الإسلامي بذلك ولمّا أحتلوا بيت المقدس أغاروا على ما حوله من المدن الساحلية وغيرها وتكوّنت لديهم عدت إمارات ، أما المسلمون فقد قابلوا هذه الحملات بحركة جهاد عظيمة قادها أبطال عظام كان لهم في إحياء روح الجهاد بين المسلمين وتوحيد كلمتهم وبعث الغيرة على دين الله ومحارمه فقاوم السلاجقة أولاً ثم بدأ الجهاد آل زنكى وعلى رأسهم عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ثم جاء صلاح الدين الأيوبي وأولاده ليوجهوا إلى الإفرنج ضربات موجعة ويسترجعوا بيت المقدس بعد أن بقي في يد النصارى قرابة تسعين عاما والذي يعنينا هنا ونحن نعرض لحالة ابن تيمية السياسية هو ما يلي :

أ- واصل المماليك الذين حكموا الشام ومصر بعد الايوبيين جهادهم ضد النصارى ، فالظاهر بيبرس وجّه إليهم حملات متتابعة واستطاع أن يسترجع كثيرا من المدن التي احتلوها ومنها أنطاكية تلك المدينة المهمة بالنسبة للإفرنج ثم بعد ذلك جاء المنصور قلاوون الذي عقد مع النصارى صُلحاً ليقطع تحالفهم مع المغول الذين كانت

قوتهم وخطرهم شديدا ولكنه لم يمض على هذا الصلح حتى نقض النصارى الصلح باعتدائهم على قافلة من تجار المسلمين وهنا هاجم المنصور قلاوون الصليبيين فاستولى على حصن المرقب الذي كان في غاية العلو والحصانة ولم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه ثم استولى على مدينة طرابلس [1] (ابن كثير ،١٤٠٥: ١٣ / ٣١٣)

وأخيرا جاء عهد ابنه الأشرف خليل الذي تولى تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام والذي استهل عهده بفتح مدينة عكا [2] والتي شارك في فتحها كثير من العلماء والفقهاء منهم ابن تيمية ، أما بقية معاقل الصليبيين فقد سقطت في أيدى المسلمين دون مقاومة واستمرت نار هذه الحرب مستعرة بينهم وبين المسلمين نحو قرنين من الزمان كان فيهما من أمرهم ماكان إلى أن اذن الله بانقضاء دولتهم وزوال خطرهم على يد الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٩١ هـ ١٢٩١م (فتحى عيد ،دت: ١٨٩)

ب- بقيت قبرص [3] في يدى النصارى وقد كان حكامها من أشد أعوان الصليبيين حيث كانوا يمدونهم بالمُؤن والسلاح والرجال وقد لجاء إليها من فرّ من النصارى من بلاد الشام وقد بقيت في أيديهم إلى ما بعد عهد ابن تيمية لذلك رأينا ابن تيمية (رحمه الله) يرسل رسالة إلى ملكها يأمره بالرفق في أسارى المسلمين .

ج- لم تنته الحرب الصليبية بطرد الصليبيين من بلاد الشام وإنما انتقلت إلى طور آخر أكثر خطورة فقد كان من الصعب أن يتخلى الغرب الأروبي عن الفكرة الصليبية تخليا تاما مفاجئا فظلّت تلك الفكرة تراود عقول بعض المُتحمسين والمتدينين

---

(١) ميناء على البحر المتوسط شمالي لبنان وكانت عاصمة اتحاد فينيقي إزدهرت في عهد السلوقيين والرومان , استولى عليها العرب سنة ٦٣٨ إغتصبها الصليبيون ثم استردها جيش المصريون سنة ١٢٨٩ (محمد شفيق غربال وآخرن ،١٩٧٢ : ١١٥٥)

(٢) ثغر بشمالى فلسطين تقع على خليج باسمها في مواجهة حيفا فتحها المسلمون سنة ٦٣٨ واحتلها الصليبيون ١١٠ – ١١٨٧ وأخذها فرسان الاسبتارية ١١٩٠ – ١٢٩١ استعادها جيش المسلمون سنة ١٢٩١ وكان سقوطها إيذاناً بسقوط الدولة اللاتينية في بيت المقدس (محمد شفيق غربال وآخرون ، ١٩٧٢ : ١٢٢٣)

(٣) بضم أوله وسكون ثانيه ثم ضم الراء وهي : جزيرة في بحر الروم – البحر المتوسط – (معجم البلدان ،دت :٤ / ٣٠٥)

الذين دعوا لاستئناف الحرب ضد المسلمين وعبروا عن حماستهم وآرائهم بمجموعة من المشاريع الصليبية ذات الأهمية البالغة منذ نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) ونلاحظ في ذلك الدور الجديد من أدوار الحركة الصليبية أن الدُعاة لم يكونوا خطباء و لم يعتمدوا على البيان في تحريك عواطف الناس واستثارة شعورهم الديني وإنما صاروا كتابا يكتبون الرسائل والكتب ويرفعونها إلى البابوات والملوك والأمراء شارحين فيها مشاعرهم الصليبية وقد قاموا بهجمات على شمال إفريقية كان هدفها التبشير بالديانة النصرانية فهل كانت تلك مقدمات لما شهده العالم الإسلامي في العصر الحاضرمن هجوم صليبي إستعماري كان هدفه الأول الغزو الثقافي والفكري للمسلمين ؟ ثم إن من يطلع على ما كتبه علماء الإسلام في الرد على النصارى وبيان تحريفهم وكذبهم وفي مقدمتهم ابن تيمية (رحمه الله) يدرك أن تأثير النصارى على المسلمين سواء كان ذلك إبان الحملات الصليبية أو فيما بعد كان محل خطر يشعر به ذوو الغيرة على هذا الدين (عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ١٤١٥: ١ / ٩١-٩٢)

وبينما كان المسلمون في غاية الرعب من الصلبيين ومشغولين بقتالهم دهمهم خطر التتار الذين فجّعوا العالم الإسلامي بمصيبة أشد وأفظع من الصليبيين فقد اكتسح التتار العالم الإسلامي من الشرق وساروا في بلاد الإسلام يقتلون ويأسرون ويحرقون ويدمرون بطريقة همجية لم يشهد لها التاريخ مثيلا قدموا بقيادة زعيمهم جنكيزخان [1] يجتاحون البلاد الإسلامية وكانوا قوما غلاظ الأكباد متعطشين إلى سفك الدماء ونهب الأموال وتخريب الديار وقد كان هؤلاء التتار قبائل متفرقة لا تستقر في مكان محدد بل كانت ظروف البلاد التي كانوا يعيشون فيها تجعلهم ينتقلون كما ينتقل الرعاة وفي تلك الظروف الحرجة التي يعيشون فيها إستطاع جنكيزخان أن يوّحد تلك القبائل تحت رايته وبدأ يرسم لنفسه سياسة التوسع وقد أسرفوا في ذلك أيما إسراف و لم يزل خطر هؤلاء التتار يزداد وتسقط في أيديهم بلاد الإسلام بلدا بعد بلد حتى استولوا على بغداد عاصمة الخلافة في سنة ٦٥٦ هـ وأحالوا هذه المدينة العامرة خرابا (عبد الفتاح رزق ١٤٢٢:

---

(١) إسمه تيموجين ولد سنة ٥٤٩ هـ توفي سنة ٦٢٤ وكان شديد البطش منذ حداثته صرف كل وقته في العمل علي تكوين وحدة من جميع القبائل وتقديرا لجهوده لقبوه بجنكيزخان ومعناه الملك العظيم .

(٢٠٣ – ٢٠٥)

وقد كان لابن تيمية مشاركات جدية في حرب هؤلاء التتار الذين اضطروا أسرته إلى الهجرة من وطنها في حران إلى دمشق الشام فكان رحمه الله يعقد المجالس في المسجد الجامع لحض الناس على الجهاد والنفقة ولمّا حاصر التتار دمشق خرج ابن تيمية في جماعة من أعيانها لمقابلة قائد التتار – قازان – لكى يأخذوا منه الأمان لأهلها وكان الذي تولى الكلام مع قازان هو ابن تيمية وأغلظ في القول حتى أيقَنَ مَن كان معه من القضاة والفقهاء بأنه مقتُول لامحالة وقد إنقاد الطاغية العتى للعالم التقى فأخذا يتحدثان في المقصد الذى جاء اليه واستطاع ابن تيمية بسياسته البارعة أن يطلب تأجيل غزو التتار لدمشق وهو يعلم أن التأخير سيعقيبه من بعد ذلك الأستعداد للقتال كما استطاع أن يقنع قازان بفّكِ الأسرى الذين أسرهم ففك القائد أسرى المسلمين و لم يرد أن يفك وثاق الأسرى من أهل الذمة من اليهود والنصارى ولكن الشيخ عارضه وأبى أن يعود الى دمشق إلّا ومعه أسرى اليهود والنصارى (أبو زهرة ،دت: ٢ / ٦٣٣ ومحمد عزير وشمس بن محمد بن علي العمران ، دت : ١٩٨، ٢٥٨، ٣٤٨)

وفي سنة ٧٠٠ هـ طلب اليه نائب دمشق وأمراؤها أن يركب البريد إلى مصر ليستحث السلطان الناصر على الخروج لقتال التتار فكلمه ابن تيمية في ذلك بمهارته السياسية حتى أمر بتجريد العساكر إلى الشام (ابن كثير ١٤٠٥: ١٤ / ١٨)

وهكذا نجد أن حياة المسلمين وبالنظر الى حياة ابن تيمية في ذلك العصر كانت مليئة بالأحداث الجسام والمصائب المتلاحقة التي روعتهم وكيف كانت سياسة ابن تيمية الحكيمة في التعامل مع تلك الحوادث حقاً لقد كانت لإبن تيمية جهود عظيمة في صد هذا الخطر الزاحف كما كانت له مواقف عظيمة منهم بالإضافة أنه (رحمه الله) ركّز في الدعوة للإصلاح السياسي على ثلاثة أمور :

الأول : بناء تصور سليم للحكم الإسلامي : خلاصة هذا أنه لايكفي أن تكون الدولة الإسلامية والإدارة فيها قوية فحسب وإنما يجب أن تكون مُنسجمة أيضا مع الأصول الواردة في القرآن والسنة وكما طبقها السلف الصالح .

الثاني : إقامة حكومة قوية : سعى شيخ الإسلام لتحقيق هذا الجانب إلى إقامة العلاقات بأُمراء المماليك وإقناعهم باتباع منهج الكتاب والسنة في الحكم .

الثالث : بعث روح الجهاد والمقاومة لمواجهة الأخطار الخارجية : ومن إنجازات شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في هذا الميدان نجاحه في إقناع قازان الثاني أن لاينهب دمشق خلال الغزو المغولي عام ٦٩٩ هـ وتكلم مع قازان كلاما أثار دهشة الحاضرين حتى قازان نفسه تعجب من جُرأته وشجاعته في الحق (ابن كثير ،١٤٠٥: ١٤ / ٨٩)

في عام ٦٩٩ هـ وكذلك في عام ٧٠٤ هـ ولما لاح خطر المغول مرة ثالثة كان شيخ الإسلام في الصف الأول من المعركة وأصدر فتوى بالإفطار للمقاتلين وكان لوجوده الأثر الكبير في الأنتصار في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ (صلاح الدين مقبول أحمد ١٤١٦ : ١ / ٨٨)

٢،٣،٢حالته الأجتماعية

قبل أن نتطرق لحالة ابن تيمية إجتماعياً لابد أن نلُقى الضوء على حالة المجتمع في ذلك العصر فقد كان من الطبيعى والحالة السياسية ما ذكرنا أن لاتكون هناك حياة إجتماعية مستقرة فقد أدى تنازع الأمراء المسلمين فيما بينهم وكثرة الغارات على البلاد الإسلامية إلى أضطراب حبَالَ الأمن في ربوع هذه البلاد ووجود حالة من الرعب والفزع في قلوب الناس بحيث أصبح لايطمئن أحد على نفسه وماله كما أدى نقص الأموال والثمرات بسبب أعمال التخريب واشتغال الناس بالحروب إلى سوء الحالة الاقتصادية وانتشار الفاقة فكثُر اللصوص وقُطّاع الطرق واشتد الغَلاء فعمد الناس إلى الغُش في المبايعات واحتكار الاقوات وتطفيف المكيال والميزان ويظهر في هذه الظروف الحرجة من يدعي الكرامة والسحر والشعوذة والأحوال الشيطانية وغير ذلك من العيوب الأجتماعية التى تصحب دائماً عهود الجوع والفاقة (محمد خليل هراس ١٤٠٤: ١٧)

كل ذلك مما جعل ابن تيمية ينظر في إصلاح المجتمع ويوجب فيه على الولاة والمحتسبين النظر في مصالح العامة بمنع الغش والعقوبة عليه وفرض التسعيرات الجبرية عند اشتداد الغلاء والضرب على أيدى المطففين والمحتكرين لذا ثار جماعة من الحسدة على شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) وشكوا منه أن إقامته الحدود والتعزير وحلّق رؤوس الصبيان وتكلم هو أيضا فيمن يشكونه من ذلك وبيّن خطأهم وهو يحاول أن يرجع الحق إلى نصابه ويعيد الأمة إلى صوابها ويرجعها إلى جوهر دينها ويبعدها عن خلافاتها وشحنائها وينتزعها من أوهامها وضلالاتها وأنه تيقن ألاّ سبيل إلى ذلك كله إلاّ بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله المصدرين اللذين استقى منهما المسلمون الأولون وعاش في ظلهما الصحابة الأخيار والتابعون الأبرار (ابن تيمية ١٤٠٥: ٦ — ٧)

وقد أُتيح لإبن تيمية أن يفقّه العامة ويعظ ويرشد ليل نهار ويُبَيّن لهم شرائع الأحكام — عبادات معاملات مناكحات - مستنبطا من كتاب الله وسنة رسوله واعتبر أن الواجبات الدينية جزء مكمل للحياة الاجتماعية وأن أركان الإسلام الخمسة تتجسد في العدل الاجتماعي ، ولتجسيد النظام الاجتماعي في واقع الحياة وتسهيل تصوره عَمِلَ شيخ الإسلام —كما ذكرنا- على إشاعة نظام التربية على منهج أهل السنة ضد النظم التربوية الأخرى التى فتّت المجتمع إلى مذاهب متناحرة وطرق متنافرة فشمّر عن ساعد الجد ونهض يكافح لإصلاح حال المجتمع من أسوأ أحواله إلى أحسنها فازداد نوراً على نور وهدايةً الى هدية (صلاح الدين مقبول أحمد ١٤١٦ : ١ / ٨٨)

٣،٣،٢ حالته العلمية

إتسمت الدراسات في عهد ابن تيمية بالتحَيُز الفكري فكلٌ له إمام يتبعه في الفقه وفي العقيدة والتعصبُ المذهبي فيه سواء أكان في الفقه أم كان في الأعتقاد وتوارثت الأجيال ذلك التحيز الفكري وإذا كانت القرون الثلاثة — السادس والسابع والثامن - قد امتازت في العلم بشيء فقد امتازت بكثرة العلم لا بكثرة الفكر فقد كانت المعلومات كثيرة جدا وتحصيلها بقدرعظيم ولكن التفكير في وزن الأدلة بالمقاييس العقلية

السليمة من غير تحيزٍ كان قليلا و لم يكن متناسبا مع الثروة التى كانت في ذلك العصر حيث كُتبت موسوعات في الفقه والحديث والتفسير والتاريخ ولكن كان الإتباع والتقليد هو السائد و لم يكن التفكير المستقل ذا سلطان (أبو زهرة ،دت: ٢ / ٦٤٢)

ونتيجة لذلك قلّ الأنتاج العلمي ورَكَدت الأذهان وأقفل باب الاجتهاد في الأصول والفروع جميعا فحرم الأخذ في الأصول بغير مذهب الأشعري وفي الفروع بغير مذهب الأئمة الأربعة وأصبح قُصارى جهد العالم أن يفهم ما قيل من غير بحث ولا مناقشة وعمد العلماء إلى جمع المعلومات المتعلقة بكل فَنٍ فَنٌ فنظموها في سلك واحد وألفوا كتبا مطولة أحيانا ومختصرة أحيانا وسلكوا منهجا حسنا في التأليف ولكن لا أثر للأبتكار والتجديد فقد غلبت على العلماء في هذا العصر نزعة التقليد وسيطر الجمود الفكري وأصبح العالم إنما يقاس بكثرة ما حفظ من كلام الأولين وعرف من آرائهم وإن لم يكن له استقلال الفكر وحرية الرأي أدنى نصيب وهذا عصور الضعف دائما تمتاز بكثرة الجمع وغزارة المادة مع نضوب في البحث والاستنتاج (محمد خليل هراس ١٤٠٤ : ١٩)

وإذا كان العلماء في هذا العهد قد وضعوا حول أنفسهم إطاراً من التقليد لا يخرجون منه فقد جاء ابن تيمية بخلاف ذلك فكان يدرس مستقلاً لادراسة التابع بل دراسة المقاييس التي يزن بها الحقائق والأدلة والمادة العلمية في شتى الفروع مهيأة بين يديه ، وإذا كان غيره قد درسها دراسة حفظ واتباع فابن تيمية درسها دراسة فحص واجتهاد فحصها فحص العارف الخبير المحيط بالدقائق وعميق الأفكار فتكونت لديه آراءٌ مستقلة توافق بعض الموجود أو تخالفه كله وانطلق في إعلان آرائه حراً جريئاً (أبو زهرة ، دت:٢/ ٦٤٣ ومحمد عزير وشمس بن علي بن محمد العمران ، دت: في عدد صفحاتها ٤٠٢ ، ٤٨١ ، ٥٣٢ ، ٥٥٧ ، ٦٠٩ ، ٦٢٤)

وهل هذا يعنى أن ابن تيمية لم يكن مقلدًا لشيخ ما ؟ كل عالم يبدأ حياته العلمية غالبا ما يبدؤها بتقليد شيوخه الذين أخذ عنهم ووثق في علومهم والمتتبع لحياة ابن تيمية (رحمه الله) يلمس منه أن ما أعطاه الله من ذكاء وقوة حافظة وسرعة إدراك وجو علمي مليء بالعلماء وبالكتب التي ألفها من كان قبلهم ساعده على أن يكون ذا قدرة

علمية مستقلة بعيدة عن التقليد الأعمى ولذلك استمر طول حياته على منهج واحد لم يتغير ، بخلاف بعض العلماء الذين تجد الواحد منهم في حياته يأخذ بأكثر من مرحلة كل مرحلة لها منهج وطريقة تخالف المرحلة الأخرى (عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ١٤١٥ : ١ / ١٥٦)

واستقلّ ابن تيمية (رحمه الله) في تفكيره بالالتزام بأيّ مذهب مُعَيّن واتبع منهج السلف الصالح في العقائد والاحكام المبنية على أدلة الكتاب والسنة وناقش ظاهرة التقليد مناقشة علمية فقال : لا يخلو أمر الداعي من أمرين :

الأول : أن يكون مجتهدا أو مقلدا فالمجتهد ينظر في تصانيف المتقدمين من القرون الثلاثة ثم يرجح ما ينبغي ترجيحه .

الثاني : المقلد فيقلد السلف إذ القرون المتقدمة أفضل مما بعدها (ابن تيمية ، دت: ٢٠ / ٩)

وقال (رحمه الله) في موضع أخر : واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوما في كل ما يأمر به وينهى عنه إلاّ رسول الله ﷺ ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد من الناس يُؤخذ من قوله ويترك إلاّ رسول الله ﷺ وهؤلاء الأئمة الأربعة قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولونه وذلك هو الواجب عليهم (ابن تيمية ،دت: ٢٠ / ٢١٠-٢١١)

هذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أنه له بصر نافذ ونفس طلعة لاتكاد تشبع من العلم ولا تكل من البحث ولا تروى من المطالعة مع التوفر على ذلك وقطع النفس له وصرف الهمة نحوه حتى انه لم ينقطع عن البحث والتأليف طيلة حياته في الشام أو في مصر في السجن أو في البيت بل إنه كان يتوجع ألماً وحسرةً حينما أخرجوا الكُتُب والأوراق من عنده في أُخريات أيامه عندما كان سجينا بقلعة دمشق ، درس ابن تيمية كل ما عرف في عصره من نِحَل ومذاهب دراسة واسعة وعميقة تحدوه إلى ذلك رغبة حارة في الوقوف على كُنه هذه المذاهب وإدراك حقائقها قرأ الفلسفة ووقف على دقائقها وكان يعرف الفلسفة اليونانية القديمة وكذلك عرف المنطق ، وأما دراسته للفلسفة الإسلامية فكانت دراسة استيعاب وتمحيص تدل على عمق وبُعد نظر فقد قرأه كل ما

كتبه فلاسفة الإسلام وكان على علم تام بمناهج الفلاسفة الإسلاميين ، واما دراسته لمذاهب الكلام وسيره فمع اطلاع واسع على جميع ما ألفه علماء الكلام من متقدمين و متأخرين وكان ابن تيمية كذلك يعرف المسيحية وعقائد فرقها المختلفة معرفة جيدة وكذلك كان يعرف اليهودية (محمد خليل هراس ١٤١٤ هـ : ٣١)

والخلاصة أنه لم تكن تلك الدراسة الواسعة التى قام بها ابن تيمية (رحمه الله) لمذاهب المتكلمين والفلاسفة وغيره لرغبة منه في الوصول إلى الحقيقة أو لكي يتلمس عندها الهدى والشفاء ولكن لكي يتمكّن من نقدها نقداً علمياً نزيهاً بعيدا عن شوائب الطعن ، ونضيف إلى كل هذا بأن ابن تيمية (رحمه الله) قد أحاط علمًا بكل تراث الفكر في عصره وألَمّ بجميع ألوان الثقافة العقلية من كلامية وفلسفية وانتقد (رحمه الله) المنطق والفلسفة ... وأقام من الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه كان يفوق أدلة الإمام الغزالي [1] (رحمه الله) سواغًا في العقل وأحوى فيها لروح الإسلام ... ولم يجترىء برفع النكير على التقليد الجامد فحَسب بل ضرب المثال لمزاولة الإجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى ... وجاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهادا قويا عنيفا ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب و لم يغادر شائبة من الشوائب التي كانت قد كدرت صفو المعين الإسلامي حتى أتى عليها بنقده المرير ... وفي انتقاده هذا لم يجامل أحدا ولم يحابه ... ثم توجه إلى الطرق والأعمال التي كانت تعد من الأمور الدينية منذ قرون وكان الناس قد استخرجوا أدلة لجوازها بل لاستحبابها وكان العلماء يداهنون فيها فوجدها ابن تيمية مضادة للإسلام ومعاكسة له فشدّد في مخالفتها ولكن هذا الفكر الحر والصراحة في القول أوغرت عليه صدورا بقيت ولاتزال تعاديه وتحقد عليه إلى الآن ، فاما الذين عاصروه فرفعوا أمره إلى المحاكم وجعلوه يبعث إلى السجن مرارا ، وأما الذين جاؤا بعد زمانه فشفوا حقدهم بتكفيره وتضليله

---

(١) أبو حامد محمد ١٠٩٥ – ١١١١ فقيه ومتكلم وفيلسوف وصوفي ومصلح ديني واجتماعي ولد بطوس من أعمال خراسان ودرس علم الفقه وعلم الكلام على إمام الحرمين واشتغل بالتدريس في المدرسة النظامية وارتحل إلى بلاد كثيرة منها دمشق وبيت المقدس والقاهرة , تأثر بعلم الصوفية فانقطع إلى العبادة وذكر الله بعد ما تبين له أن العلوم الدنيوية لم تكن كافية (محمد شفيق غربال وآخرون ، ١٩٧٢ : ١٢٥٤)

ولكن نداءه لاتباع الإسلام الخالص المحض كان نفحة صور أحدثت في العالم حركة دائمة لانزال نسمع صداها في أقطار الإسلام بين حين وآخر (المودودي ١٣٩٥ : ٧٨-٧٩)

أما كتابات ابن تيمية (رحمه الله) في المجالات المُختلفة فتعتبر نادرة من نوادر تاريخ التأليف تمتاز كتاباته بقوة الحُجة في بيان العقائد وشرح الأصول وبقدرته العجيبة على إلزام الخصوم وباطلاعه المُدهش على الخلافيات وسعة أُفُقه في العلوم والفنون وبالقول الفصل في القضايا المختلف فيها بين العلماء وبسرد الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح بحيث تنشرح لها الصدور وتطمئن إليها القلوب (صلاح الدين مقبول أحمد ١٤١٦ : ٢ / ٨١-٨٢)

وقال القاضي أبو المعالى محمد بن على الزملكاني المتوفى سنة ٧٢٧ هـ يصف ابن تيمية : كانت اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين (ناصر الدين الدمشقي ١٤١١ : / ١٠٣-١٠٥)